دور مسدس حالي في الحياة الاجتماعية في شبه القارة الهندية

■■ مسدس حالي هو الملحمة الأردية التى نظمهاحالي من أجل إصلاح حياة المسلمين الاجتماعية في الهند في محاولة للنهوض بهم من كبوتهم لاستعادة مكانتهم في طليعة شعوب الهند بعد أن فقدوا دورهم الطليعي في حكم الهند بنهاية الدولة المغولية واحتلال الانجليز للهند وحكمهم لها وقد خيمت سحب اليأس على المجتمع الهندي عامة وعلى المسلمين خاصة بعد فشل ثورة التحرير عام ١٨٥٧م وما آلت اليه حياة المسلمين من تدهور واضمحلال والتفكك الاجتماعي جعلت حالي ينظم هذه المنظومة الطويلة والمعروفة أيضا بـ «مد وجزر إسلام» عام ١٨٧٩م ليدعو المسلمين إلى استعادة أمجادهم وماضيهم المشرق وقد نظم حالي «المسدس» بإيعاز من السير سيد أحمد خان الذي وجهه لنظم الشعر الاجتماعي الهادف، ويقول حالي في ترجمته: لقد شجعني السير سيد بقوله إنه من المفيد لو وضحت بالشعر حالة الضعف والذل الراهنة للمسلمين لهذا نظمت «المسدس» وقد أشارحالي إلى فضل توجيه السير سيد له في نظم المسدس في مقدمته.

وتعد هذه المنظومة فريدة من نوعها في الشعر الأردى وبداية لعهد جديد في نظام الشعر الأردي الهادف، الذى يفيد المجتمع ويعود عليه بالنفع ويعمل على إصلاحه وبذلك أصبح للشعر دور هام في الحياة بعد ما كان يقتصر على مجرد المتعة الفنية الخالصة بغض النظر عن الجانب الأخلاقي، وكان لهذا المسدس دور كبير في نهوض المجتمع الهندي من تأخره واضمحلاله حتى صار يتردد على ألسنة الكبار والصغار وصار مضرباً للأمثال وبه ذاع صيت حالي وشهره في أكناف الهند وأطرافها.

وعلى الرغم من أن حالي لم يأت بجديد من الناحية الفنية وناحية القالب الشعري إلا أنه جاء بجديد من ناحية المضمون حيث استخدم الشعر لأول مرة في مهمة إصلاحية.

وتحدث حالي في مقدمة المسدس عن الأوضاع الاجتماعية في الهند وصور حالة المجتمع السائدة من فوضى وعدم الشعور بالأمان.. فالحياة السياسية مضطربة وانتشرت البدع والخرافات في الدين، وحلت محل الشرع وانتشر الجهل بين أئمة المسلمين وأصبحت حالة القوم متردية وصار العزيز ذليلا ومُرغ الشريف في التراب وكانت نهاية العلم، وأفسد الفقر كل بيت وتفشت المجاعات وفسدت الأخلاق تماماً، وخيمت على الناس سحب التعصب الكثيفة وتقيد الناس بأغلال العرف والتقاليد، وتسلط الجهل والبدع على رقاب العباد. فالأمراء غافلون عن مهامهم، والعلماء الذين يعول عليهم في إصلاح المجتمع كانوا جاهلين بضروريات العصر ومقتضياته وحتى الآن لم ينظم أحد شعراً من أجل إيقاظ

بقلم: د. جلال السعيد الحفناوي

المسلمين وتنبيههم.

وبين حالي في المسدس أسباب ضعف وتأخر مجتمع المسلمين بعد أن كانوا أولي بأس شديد وسرد تاريخهم الزاهر الذي سادوا فيه الهند وأجزاء كبيرة من العالم، ووضع لهم الحلول التي تنهض بمجتمعهم مرة أخرى ثم اتجه إلى تصوير الإطار الإجمالي لمجتمع العرب في الجاهلية في الجزيرة العربية قبل الإسلام وبداية ظهور النبي ﷺ، وتناول تعاليمه بأسلوب جذاب مؤثر مبينا ما كان عليه المسلمون من عزة وجاه بسبب الإسلام في ذلك الوقت، ثم يذكر أوضاع المسلمين السيئة وضعفهم وانحلالهم وتكاسلهم بطريقة معبرة يندى لها الجين خجلا، وفي نهاية «المسدس» يبث فيم شعاع الأمل ليخرجهم من ظلمات بأسهم، ويحفزهم على العمل وبذل الجهد ويشجعهم على تحصيل العلوم الجديدة ليواكبوا ضروريات العصر مع الاحتفاظ بأخلاقهم ودينهم ثم يختم المسدس بالتوجه إلى الله تعالى بالدعاء للمسلمين.

وكان حالي يعرف أنه يقدم «المسدس» نموذجاً جديداً، وكان يعلم أن أنصار الشعر القديم لن يستحسنوا هذه البدعة، وكان تقديره في موضعه.. فعندما وصلت الطبعة الأولى من المسدس إلى أيدى الناس عام ١٨٧٩م انتشرت صيحات المعارضة في أنحاء الهند واحتدم النقاش حوله ونقدوا طريقة حالي في كشف العيوب أمام الأعداء، وعلى العكس من ذلك قبلته بعض الأوساط والدوائر لما فيه من حماسة شديدة جعلته بمثابة رسالة تبعث الروح في حياة المجتمع وكشعاع نور في ظلمات اليأس يهدى المسلمين إلى جاد الطريق وأثر المسدس تأثيرا عميقاً في قلوب المسلمين وبعد فترة من الوقت هدأت عواصف المعارضة وقرأه الجميع الخاصة والعامة والعالم والجاهل والفقير والغنى والصغير والكبير والمرأة والرجل ونكسوا رؤوسهم وانخرطوا في البكاء على حالتهم المتردية.

وفي غضون سبعة أعوام نال هذا المسدس شهرة عريضة في أطراف الهند وأكنافها وقد اشتمل موضوعه على كثير من اللوم والطعن والنقد الذي أظهر عيوب القوم ومساوئهم وعملت فيهم اللغة والكلمات عمل السيف والرمح فقد كان التعصب مانعاً من سماع كلمة الحق، ومع كل هذا انتشر المسدس في أرجاء الهند في مدة قصيرة ونشر في طبعات عديدة وقد اختارته بعض المدارس القومية لتعليم الأطفال وكان يقرأ في مجالس الاحتفال بمولد النبى ﷺ، وترددت أبياته على (الألسنة ومثلت موضوعاته على المسرح القومي في بعض المدن ورتب على طريقته وفي بحره العديد من القصائد في قالب المسدس، وكتبت عنه أكثر الجرائد والمجلات أبحاثا مؤيدة أو معارضة له وأدرج ضمن المناهج التعليمية في المدارس الحكومية في المحافظات الشمالية نظيراً لشهرته ومن الأسباب الكبيرة التي جعلت مسدس حالي يحوز هذه الشهرة هو تصويره للواقع والحقيقة بصدق وإخلاص وحرقة وألم وهذه الصفات تسري في كل بيت من المسدس، والسبب الثاني بساطة اللغة وسلاستها.. والمسدس رسالة للمسلمين جميعاً ولم يكن منحازاً إلى أي طبقة أو فرقة بعينها، لهذا استطاع كل فرد أن يستوعب هذه الرسالة الإصلاحية بسهولة لأن حالي استعمل لغة الحديث اليومية دون تكلف.

والمسدس كتاب إلهام ويعتبر معلماً بارزاً في تطور الشعر الأردى وكالنجم الهادي الذي لاح في سماء الأدب الأردي وهو أساس الشعر القومي والوطني في الهند. ولم يخاطب حالي أصحاب دين معين بل يخاطب جميع مواطني الهند وقد قلد حالي كثيرا من الشعراء في نظام القصائد في قالب المسدس، ولكن لم يصل حتى الآن أي منهم إلى منزلةحالي من حيث الحماسة وقوة الخيال وجمال الأسلوب فقد عددحالي فيه مآثر المسلمين الاوائل، ووضح فيه عظمة الإسلام السالفة وقوة المسلمين الأولين وسمو أفكارهم ويوجه حالي نداءإلى المسلمين بأن يعقدوا العزم لاستعادة سابق مجدهم ومنزلة الصدارة في تاريخ العالم.

فالقيم التى عرضهاحالي في المسدس متحررة من قيد عاملي الزمان والمكان. فالعمل والإخوة والعدل والمساواة الاجتماعية واحترام العلم ونبذ الشهرة والأنساب وغيرها

لأول مرة.. إستخدم حالي الشعر في «المسدس» ليقوم بمهمة إصلاحية في المجتمع الهندي.

من الصفات المزمومة تعتبر ضرورية لكل شعب والعلماء يعرفون جيداً ان دور مسدس حالي في إيقاظ المسلمين ونهضتهم لا يقل بأي حال من الأحوال عن تأسيس حركة وكان السير سيد أحمد خان يعرف أهمية المسدس فقد نظمه حالي بتشجيع منه بلا شك «فأنا المحرك والحافز لهذا العمل وأعتبره من أعمالى المجيدة وعندما يسألنى الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ماذا أحضرت؟ فسأقول إنني جعلت حالي ينظم المسدس ولا شيء غير ذلك فقد انتشل حالي قومه من انحطاطهم بالإضافةإلى أنه أحدث تغييرات هائلة في تفكير المسلمين وطريقة حياتهم في الخمسين سنة التي أعقبت نشر المسدس».. وقد وصلت رسالة المسدس في نهضة المسلمين إلى رجل الشارع والعامة، بحيث لا يناهزه في ذلك كل من المؤتمر التعليمي الإسلامى أو كلية علي عليكره، فكلاهما كان محدودا بأوساط المثقفين، أما المسدس فكان لسهولة لغته وبساطة أفكاره مقبولا لدى الخاصة والعامة على السواء، فكثير من الناس عارض حركةعليكرة ولكن مَنْ من الناس عارض مسدس حالي؟ وقد غير المسدس ٧٠ مليون شخص ويعتبر من أهم خمسة أو ستة قصائد طويلة في العالم وإن لم ينظم حالي سوى هذه المرثية في قومه فإنه يعتبر في عداد مصلحي قومه جنباً إلى جنب مع السير سيد أحمد خان ومحسن الملك، وكان مسدس حالي مرآة لانحطاط المسلمين وتأخرهم ولم يكن حالي يرغب أن يظل المسلمون في مستنقع الإحباط واليأس ولكنه بعد أن يشعرهم بعيوبهم ونقائصهم يهيئهم للعمل ويدفعهم دفعا ليستعيدوا عظمة أسلافهم مرة أخرى ويقول خواجة غلام الصيدين: «إن حالي رفع النقاب عن الوجه المضيء لتعاليم الإسلام والذي كان قد حجب عن المسلمين في أوقات التعصب وسوء الفهم، وبرهن على عظمة الدين الاسلامي الذى جاء ليقيم حكومة الأخلاق والمحبة حتى تسود الاخوة بين الناس.. ويقول الدكتور غلام حسين: إن مسدس حالي من روائع هذا العصر والذي ساهم في الحركة الإصلاحية التي نادى بها السير سيد وخاصة فيما يتعلق بالناحية التعليمية، فلم تستطع مقالات السير سيد ورفاقه في مجلة تهذيب الأخلاق أن تبث الروح في جسد المسلمين الخامد مثلما فعل مسدس حالي.

وقد أعاد حالي في مسدسه الشعور القومى إلى قوته. فهو يبكي ويبكي الآخرين وهو يشعر أيضا بعظمة الإسلام وسموه ويشعر الآخرين بذلك. فهذا الشعر الحزين استغاثةمن القلب، ونداء من مسلم صادق تخرج من أعماق قلبه، وهو رسالة مصلح وصيحة مرشد ويبدو صو تحالي في هذا الشعر غارقا في الألم.

وفيما يلى نماذج من «مسدس حالى» يبكى أوضاع المسلمين المتردية وفساد العلماء ورجال الدين ويتحسر على انقضاء عهد علماء الشريعة والمفسرين والمحدثين والمناظرين وتوقف المدارس التي تعلم الدين وتخرج القضاة والمفتين وضياع الكتب الدينية الثمينة، وجهل رجال الدين الذي تسبب في تأخر المسلمين فيقول:

- أين علماء الشريعة المهرة، وأين الذين لهم بصيرة بأخبار الدين.

- أين علماء علم الاصول والمناظرون وأين المفسرون وأين المحدثون.

- فالمجلس الذي كان مضاء بالأمس، لم يبق منه الأن ضوء مصباح خافت.

- أين المدارس التي تعلم الدين، وأين مراحل العلم واليقين.

- أين أركان الشرع المتين، وأين ورثة الرسول الأمين.

- لم يبق أي ملجأ أو مأوى للأمة، فلا قاض ولا مفت ولا شيخ.

- أين خزائن الكتب الدينية، وأين اختفت مشاهد العلم الإلهي.

- لقد مرت بهذا المجلس ريح صرصر عاتية، أطفأت جميع مشاعل نور الحق.

- ولم يبق أي متاع في المجلس فلا إبريق ولا ربابة، ولا مطرب ولا ساق.

- وكثير من الناس بعد ما ادعوا أنهم يرجون الخير للأمة واعترف السفهاء بفضلهم، بدأوا يتجولون في القرى ويجدون في جمع المال والثروة.

- هؤلاء هم مرشدوا الاسلام، وهم الذين يلقبون باسم ورثة الانبياء.

«المسدس» كتاب إلهام.. تحررت القيم التي عرضها حالي خلاله من قيدي الزمان والمكان.

- وكثير منهم يفتخرون بأن أسلافهم كانوا من أولياء الله.

- ويظهرون كرامتهم ومعجزاتهم الزائفة أمام الناس، وهكذا ينهبون أتباعهم. ويعتبرون أن هؤلاء الناس هم الذين يسيرون على طريق الشريعة وأن منزلتهم أسمى من الشريعة.

- وهم الذين انتهى إليهم الكشف والكرامات، وفي قبضتهم أقدار العباد.

- فهم المرادون وهم المريدون الذي يقصد إليهم

- يخطبون بالشيء الذي يزيد الكراهية ويكتبون الحديث الذي تنفطر منه الاكباد.

- يحقرون العباد المذنبين، ويكفرون الأخ المسلم

- هذه هي طريقة علمائنا، وهذا هو أسلوب مرشدينا.

- لو ذهب أحد إليهم ليسألهم أي مسألة يرجع من عندهم وهو يحمل عبئا ثقيلاً على كاهله.

- وإذا شك أحد في كلامهم لسوء حظه، فإنه لابد أن يقال: إنه من أهل النار.

- ولو حاول أحد الاعتراض عليهم، فمن الصعب أن يعود آمنا.

- إنهم لو أرادوا فانهم يجعلون النبي إلهاً، ويرفعون منزلة الإمام على منزلة النبى!!

- ويقدمون النذور والقرابين على أضرحة الأولياء، ويتلون دعواتهم أمام قبور الشهداء.

فهذا كله في رأيهم التوحيد، ولا يضعف الإسلام، ولا يحدث أى نقص في الإيمان.

- ذلك الدين الذي كان سببا في نشر التوحيد في العالم، وتجلي الحق به في كل زمان ومكان.

- والذي قضى تماماً على الشرك، ذلك الدين قد حدث فيه تغيير في الهند.

- والثروة التي كان الإسلام معتزا وفخوراً بها، فقدت أيضا مع آخر مسلم.

وقد ترجم مسدس حالي إلى عدة لغات عالمية ومحلية لشهرته، فترجم إلى اللغة الإنجليزية والروسية ولغة الباشتو واللغة الهندية والبنغالية والبنجابية.. وتقول صالحة عباد حسين: لقد انقضت سنوات عديدة منذ أن طبع المسدس للمرة الاولى في عام ١٨٧٩م، ومن الصعب الآن تقدير أثره الأخلاقي والإصلاحي على المجتمع الهندي. ويقول أحد المستشرقين: نجد في الهند مرثاة حالي الرائعة المسماة مسدس مد وجزر إسلام ١٨٧٩م فهي تستعيد الأبهة الإسلامية الزائلة بأسلوب مشرق وتنفذ إلى أعماق الجمهور.

وقد قام الشاعر اليمني القاضى محمد محمود الزبيرى بترجمة مسدس حالي شعراً وقد اطلعت على نماذج من هذه الترجمة في مجلة «المسلمون» التي كان الإخوان المسلمون يصدرونها في عامي ١٩٥٢ و ١٩٥٣م.. وهذه الأبيات سبعة وستون بيتا نشرت في العددين السادس والسابع عام ١٩٥٢م، ويقول الشاعر في مقدمته على هذه الترجمة: «هذه المنظومة التي وضعها حالي لاستنهاض عزائم المسلمين هي أعظم مؤلفاته، كما أنها من أعظم ما أنتجته آداب الهند الإسلامية على الإطلاق، وكان لها أثر بعيد المدى في إيقاد روح الوعى الإسلامى في شبه القارة، وقد ترجمت هذه المنظومة إلى لغات عديدة. ولما كانت اللغة العربية أدنى قرابة إلى هذه اللغة (الأردية) وأحق بتراثها الأدبي وكنوزها الإسلامية، فإنا نرى أن ترجمة هذه المنظومة الأردية إليها كان يجب أن يسبق جميع التراجم الأخرى، ومع ذلك فإنا وقد جئنا إلى ترجمتها متأخرين نرى أن العالم العربي لا يزال في حاجة إلى مثل هذه الهزة الروحية التي توقظ في أعماقه أمجاد العافية.

■■■

وفيما يلي نماذج من هذه الترجمة التي لم يلتزم فيها الشاعر بقالب المسدس عند الترجمة كما أنها ليست ترجمة حرفية بل حاول الشاعر جاهدا أن يوصل المعنى إلى القاريء فأضاف أبياتا من عنده:

أتى سائل بقراط يحذر خطبه
ويسأله فتوى تعالج كربه
ألا أي داء في البرية مهلك
إذا مس إنسانا قضى نحبه؟
فقال لم يخلق الله مرة

لشهرته.. ترجم المسدس إلى عدة لغات عالمية ومحلية ووصفه أحد المستشرقين بالمرثاة الرائعة.

لنا مرضا إلا ويخلق طبه
ولكن داءً هينا لا نخافه
هو الداء يستشري ويقتل ربه
وأخطر أمراض علينا معبته
هو المرض السهل الذي لن نطبه
نرى أمره هونا ونترك شره
بأقطارنا ينمو ويجمع إليه
ونعتد أقوال الطبيب بشأن
خرفاه شيخ أصبح الهجر دأبه

ففى النموذج السابق نجد أن الابيات الثلاثة الأولى هي ترجمة للمسدس الأول. اما الأربعة أبيات فقد ذكرها الشاعر من أجل توضيح الفكرة للقارىء العربي ثم يقول:

إذا هو في التشخيص أعلن رأيه
زعمناه بالتشخيص يعلن عيه
وقمنا عليه هازئين نذيقه الهوان
ونسقيه من الصاب ربه
ونلقه سلقا بألسنة لنا
حداد تعزيه وتنسج خزيه
كأن به مس الجنون كأننا
حواليه أطفال تحاول كبه
نحاذر أسباب الشفاء وإن يكن
نطاسيهي الآسى لنا أو نبيه
كذاك يمد الداء في الروح مده
ويبلع بالتدريج فينا أشده
وينزع منا الأنس بالطب والدوا
الى أن نذوق اليأس والموت بعده
ونكره أن نلقى الطبيب بدائنا
ولو كان سر الحي والميت عنده
كذلك حال الشعب يوم تغوله
الفوائل في الدنيا ويفقد رشده

وعند مقارنة هذه الأبيات بالأصل الأردي نجد أن الثلاثة أبيات الأولى هي الترجمة الحقيقية للمسدس الثاني والستة أبيات الأخرى هي شرح للأبيات الثلاثة الأولى.

□□□

المس

رعى الله أياماً تعود إلى الذكرى
إلى المسجد الأقصى.. وآيته الكبرى
سرى خير خلق الله ليلا فأمَّهُ
فحييت من سار وحييت من مسرى
هي القدس من كالقدس شعباً وأمة
فاجبالها خضر.. ووديانها خضرا
مباركة قبلاً.. وبعداً وحيثما..
توجهت تأتى من مداخلها.. البشرى
وجاء الصليبيون حقداً وثارة
فعاثوا بها بطناً.. وطافوا بها ظهراً
وجاء صلاح الدين آية أمة
فأشبعهم عفواً.. وأخرجهم قسرا
ومرت عقود والعدو يريدها
ليزرع فيها الظلم.. والقهر.. والكفرا
وجاءت يهود الأمس تبني حصونها
مؤامرة.. تتلو.. مؤامرة.. أخرى
وهنا نحن.. والأيام تكشف نفسها
فليس لهم أمر.. فنبدي لهم أمرا
فواحدهم يأتي اللقاء مكابرا
وأنفاسه حرى.. أعينه حمرا
يصافح باليمنى.. وتأبى عيونه
وخنجره المسموم في يده اليسرى
نمد له منا يداً مستقيمة
فيلوي بها غيظاً.. ويطعننا غدرا
ولو أن صف المسلمين موحد
ورايتهم تعلو عليهم لما استجرا
وقد ضاقت الدنيا وذل عزيزها
وصارت لياليها وأيامها خسرا